أمي حيث لا تتمكن من محاججته، وليس لديها أي دليل على صدق مخاوفها وهواجسها، وهو لديه قدرة عجيبة على التملص وتحويل الحديث إلى مزاح وضحك حيث يميع الأمور ويبدأ وجه مريم الذي كان عند بدء حديث أمي مصفراً، يتفصد عرقاً من الانفراج والابتسام حتى ينفجر ضحكها ويهدأ روعها.

أمي كانت مطمئنة من جهة أخي محمود أنه لن يتورط في قضايا خطيرة فهو كبير ومجرب وعاقل وقد يشارك في بعض الأمور، ولكنه لن يمسك الحجر بيديه، وهي تعرفه جيداً لذا فقلقها عليه كان قليلاً جداً، قلقها على حسن كان أكثر منه على محمود ولكنه أضعف بعشرات المرات منه على زوج ابنتها إبراهيم، أما عليّ فيبدو أنها لم تكن قلقة مطلقاً، فهي تعرف أن إقبالي على المشاركة في فعاليات الانتفاضة محدودٌ جداً، خاصة وأنني ليس لي أي انتماء سياسي أو فكري أما أخي محمد فقد كان بطبيعته هادئاً ومنشغلاً بعمله في جامعته بيرزيت وتحضيره لرسالة الماجستير.

تعبيرات قلقها كانت بانتظار عودة كل واحد منا إلى البيت ومراقبة مواعيد الخروج والعودة، خاصة التأخر في الليل، وكانت كثيراً ما تقوم بحملات تفتيش في غرفة محمود أو غرفة حسن وخاصة لغرفة إبراهيم، حيث تجمع نساءهم الثلاثة وتدخل الغرفة وهن برفقتها وتبدأ بتفتيش الأدراج والرفوف وتطلب من إحداهن قراءة كل ورقة خشية أن يكون فيها شيء ممنوع سقط من أحدهم، فيأتي جنود الاحتلال ومخابراته للتفتيش أو الاعتقال فتعثر على تلك الورقة فيقع المحظور.

لم تعثر في أي مرة على أي شيء وراء إبراهيم، فقد كان دقيقاً وينظف كل شيء وراءه جيداً ضبطت وراء محمود أوراقاً أحياناً مثل مسودة بيان للقيادة الموحدة، حين يعود إلى البيت تجري له (زفة) وتعقد له محكمة عسكرية.

في إحدى المرات رأيتها تُجري تفتيشاً شاملاً وجذرياً في سيارة إبراهيم، وكأنها عثرت على شيء ما، دخلت مثل قوة اقتحام عليه وهو يتناول طعامه، طردت زوجته من الغرفة وأغلقت الباب، وكان صوتها يعلو أحياناً بكلام عام يحمل معنى التقريع، ثم يخفت حين تتحدث عما ضبطته في سيارته، وكان واضحاً أنه يحاول استخدام طريقته المعتادة بتمييع الموقف بالمزاح والضحك ولكنه غير قادر على النجاح هذه المرة، ويبدو أنها ضبطته متلبساً بجريمة نكراء.